مجلة كلية
الدعوة الإسلامية

العدد الثالث عشر
1996

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1425 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1996 أفرنجي

المنهج العلمي عند العرب

أبحاث منقودة

العامل النحوي في ميزان النقد

تراجم من الفكر الغربي

فن الإرصاد وأثره في البيان العربي

د. أحمد سالم الديب

توطئة:

الأصل اللغوي لمادة (رصد): لهذه الكلمة معان كثيرة، وعلى الرغم من تلك الكثرة فإنها تدخل تحت مفهوم (دوران المادة حول المعنى الواحد) ومن معانيها: المكافأة بالخير، قال الليث: يقال: أنا لك مرصد بإحسانك حتى أكافئك به، ومنها المراقبة، والترقب، رصدت فلاناً: راقبته أو ترقبته، ومنها الإعداد للشيء، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾[1] قال الزجاج: كان رجل يقال له أبو عامر الراهب حارب النبي ﷺ، ثم مضى إلى هرقل، وكان أحد المنافقين، فقال المنافقون الذين بنوا مسجد الضرار: نبني

(1) سورة التوبة، الآية: 9.

هذا المسجد وننتظر أبا عامر حتى يجيء ويصلي فيه[2]. ومنها القعود على الطريق، قال الله تعالى: ﴿وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾[3] وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾[4] والمرصد والمرصاد: الطريق، المرصد الموضع الذي ترصد الأحوال الجوية وغيرها منه، والرصْد، والرصَد: المطر يأتي بعد المطر، وقيل: المطر يقع أولاً، والرصَد: جمع مفرده: راصد، قال الحق سبحانه: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾[5]. إذا نزل الملك بالوحي أرسل الله معه رصداً يحفظونه[6].

أما الإرصاد في كتب البلاغة والأدب فمن خلال قراءاتي فيها تبين لي أن الإرصاد، والتسهيم والتوشيح تتفق في الدلالة على مضمون واحد، وأن الاختلاف في التسمية شكلي.

إذاً فلماذا عقد بعض علماء البديع لكل منها فصلاً مستقلاً في كتبهم: على الرغم من أن ما صدروا به حديثهم عند التعريف بها ذو مدلول متفق؟! وهذه تعريفاتهم أو بعض منها: عرفه قدامة بن جعفر بقوله: وهو أن يكون أول البيت شاهداً بقافيته، ومعناها متعلقاً به، حتى إن الذي يعرف قافية القصيدة التي البيت منها، إذا سمع أول البيت عرف آخره وبانت له قافيته[7]. وعرفه أبو هلال العسكري، فقال: سمي هذا النوع التوشيح وهذه التسمية غير لازمة بهذا المعنى، ولو سمي تبييناً لكان أقرب «وهو أن يكون مبدأ الكلام ينبىء عن مقطعه، وأوله يخبر بآخره، وصدره يشهد بعجزه..»[8] فالعسكري يبدو أنه غير راض عن هذه التسمية، ويقترح البديل، وهو (التبيين) ويرى أنه الأقرب

(2) تفسير القرطبي/ 25/ 8.
(3) سورة التوبة، الآية: 5.
(4) سورة الفجر، الآية: 14.
(5) سورة الجن، الآية: 27.
(6) تنظر مادة (رصد) في 158 ـ 160/ 4 لسان العرب لابن منظور. وتاج العروس للزبيدي 353 ـ 354/ 2. والصحاح للجوهري 474/ 2.
(7) نقد الشعر ص 191.
(8) الصناعتين ص 382.

إلى المسمى وهو المعنى الذي تحته. وعرفه النويري بقوله: وأما التوشيح فهو أن يكون معنى أول الكلام يدل على لفظ آخره. . .»[9]. وأشار ابن سنان الخفاجي إلى اضطراب آراء العلماء في تسمية هذا النوع من الأدب توشيحاً، وبعضهم يسميه التسهيم، ويعني به قوله: فهذا هو الكلام الذي يدل بعضه على بعض، ويأخذ بعضه برقاب بعض، وإذا أنشدت صدر البيت علمت ما يأتي في عجزه، وهذا هو معنى الإرصاد[10]. وبهذا قال عبد المتعال الصعيدي في تعليقه على كلام الخفاجي: هو أن يكون مبدأ الكلام ينبىء عن مقطعه، وأوله يخبر بآخره، وهذا النوع من البديع يسمى الإرصاد أيضاً[11]. أما في بغية الإيضاح فقد قال الصعيدي: ومنه الإرصاد ويسمى التسهيم أيضاً، وهو أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز[12]. واعتبر المراغي الإرصاد والتسهيم شيئاً واحداً، فقال: هو أن يجعل قبل آخر السجعة أو البيت ما يفهمهما عند معرفة الروي[13]. وهما كذلك عند صاحب كتاب نفحات الأزهار. حيث قال: التسهيم ويقال له: الإرصاد، وهو أن يتقدم من الكلام ما يدل على ما يتأخر دلالة معنوية، قافية كان المتأخر أو ما قبلها[14]. وعرفهما العباسي بمعنى واحد فقال: الإرصاد. ويسميه بعضهم التسهيم: وهو أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروي[15].

وأما في الأدب فإن أهميته تتضح بما أقيم حوله من دراسات أساسها ما يوحي به المفهوم الأدبي للإرصاد من أن صدر الكلام يهدي إلى عجزه، وأن معناه يسبق إلى القلب لفظه، وذلك لأن الألفاظ قد وضعت متمكنة في مواقعها، فوقف كل لفظ بين أخويه شكلاً ومضموناً على حد قول ابن سنان

---

(9) نهاية الأرب 137/7.

(10) الصفحة 152 ـ سر الفصاحة.

(11) هامش الصفحة السابقة.

(12) ص 21.

(13) علوم البلاغة ص 327.

(14) عبد الغني النابلسي ص 135.

(15) معاهد التنصيص من 220/1.

الخفاجي: وإنما أرادوا المعاني إذا أوقعت ألفاظها في مواقعها، وجاءت الكلمة مع أختها المشاكلة لها التي تقتضي أن تجاورها بمعناها إما على الاتفاق أو التضاد حسبما توحيه قسمة الكلام[16].

ومن غير شك أن هذا الطراز من الأدب ذو طبقة عالية، ولأجل ذلك افتخر ابن نُباتة بقصيدته لأنها جاءت على منوال ذلك الطراز العزيز فقال:

خذها إذا أنشدت للقوم من طرب صدورها علمت منها قوافيها[17]

وهذه النظرة إلى الإرصاد هي التي جعلت علماء النقد والبلاغة يولونه اهتماماً خاصاً للكشف عن قيمته الأدبية والفنية باعتباره مصدراً أدبياً وردت منهله أقلام كبار الشعراء والأدباء فنظموا فيه، قال عبد المتعال الصعيدي: والإرصاد مما يكسب الشعر حلاوة والنثر طلاوة، ولهذا افتخر به ابن نباتة[18]. وأبان العسكري عن خصائص أسلوب الإرصاد بكيفية أتم فقال: وهو أن يكون مبدأ الكلام ينبيء عن مقطعه، وأوله يخبر بآخره، وصدره يشهد بعجزه، حتى لو سمعت شعراً، أو عرفت رواية، ثم سمعت صدر بيت منه وقفت على عجزه قبل بلوغ السماع إليه[19]. ثم قال في مدح هذا اللون من الأدب يجري مجرى الإرصاد: وخير الشعر ما تسابق صدوره وأعجازه، ومعانيه وألفاظه، فتراه سلساً في النظام جارياً على اللسان لا يتنافى ولا يتنافر كأنه سبيكة مفرغة، أو وشي منمنم، أو عقد منظم من جوهر متشاكل متمكن القوافي غير قلقة، وثابتة غير مرجة، ألفاظه متطابقة، وقوافيه متوافقة، ومعانيه متعادلة، كل شيء منه موضوع في موضعه، وواقع في موقعه، فإذا نقض بناؤه، وحل نظامه، وجعل نثراً، لم يذهب حسنه، ولم تبطل جودته في معناه ولفظه، فيصلح نقضه لبناء مستأنف، وجوهره لنظام مستقبل[20]. ومما يؤكد أن أسلوب

(16) سر الفصاحة ص 150.
(17) سر الفصاحة ص 171.
(18) بغية الإيضاح ص 21.
(19) الصناعتين ص 382.
(20) الصفحة نفسها.

الإرصاد قائم على إحكام العبارة، وحسن ترابط المعاني، وتعاطفها. ووضوح الدلالة فيها وروده في القرآن الكريم كثيراً، منه قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾[21]. فإن القارىء إذا وقف على (يكتبون) عرف أن آخر الآية هو (ما تمكرون) لتقدم ذكر الدليل عليه، وهو المكر في صدر الآية. وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[22] فالإرصاد هو (فاختلفوا) وهو يوحي بأن اللفظ المناسب لا يكون إلا (يختلفون) في عجز الآية، وأن السامع يعرف ذلك حين يسمع (فيما) قبله لتقدم الدلالة عليه. ومن الإرصاد كذلك قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾[23] فإن الدلالة واضحة بين ﴿أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ وبين ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ يدركها القارىء والسامع عند التأمل. ومن أساليب الإرصاد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[24] فإذا تأملت قوله تعالى ﴿لننظر﴾ بعدما عرفت ﴿جعلناكم خلائف في الأرض﴾ عرفت أن يكون بعده ﴿تعملون﴾ لأن المعنى يطلبه ويقتضيه ويهدي إليه. وقال عز من قائل: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[25] واضح أن ورود لفظ (ليظلمهم) في الآية الكريمة يرشد إلى أن مادة الظلم ستكون في عجزها. وهكذا نلحظ أن المعاني تتهادى ويوصل بعضها إلى بعض، وما ذلك إلا لوجود رابط قوي يضم العجز على الصدر وذلك هو فن الإرصاد، الذي يرد كثيراً في أساليب البلغاء لما له من وضوح الدلالة وقوة التأثير، كما سنعرفه في الأساليب الآتية لفصحاء الشعراء على اختلاف العصور. فهذا عمرو بن معديكرب الزبيدي شاعر مخضرم جيد الشعر مقل لا عن عجزه يقول:

---

(21) سورة يونس، الآية: 21.

(22) سورة يونس، الآية: 19.

(23) سورة العنكبوت، الآية: 41.

(24) سورة يونس، الآية: 14.

(25) سورة الروم، الآية: 9.

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

قال صاحب معاهد التنصيص: والشاهد فيه الإرصاد ويسميه بعضهم التسهيم، وهو أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز[26]. وهذا ما حققه الشاعر في بيته السابق حيث أرصد صدر البيت، ونصب منه دليلاً يهدي السامع إلى عجزه، ومن أبيات الإرصاد قول الشاعرة:

وخرق تجاوزت مجهوله بوجناء حرف تشكي الكلالا
فكنت النهار به شمسه وكنت دجى الليل فيه الهلالا[27]

أتت الشاعرة بالبيت الثاني كنتيجة لما يقتضيه البيت الأول حيث ضمنته معنى الإرصاد الذي هو الدليل عليه. وللخنساء في هذا الضرب من القول الكثير من بليغ شعرها وفصيح نظمها مثل قولها:

بيض الصفاح وسمر الرماح فبالسيف ضرباً، وبالسمر وخزا[28]

فإن من يقف على قولها: فبالسيف ضرباً، يبادر إلى فهمه لفظ القافية، لا سيما من له علم ببنية الشعر وضروبه، وذلك لأن الشاعرة قد وضعت الدليل بين يديه، وقد يؤكد صحة هذه الدعوى ما روي من أن عمر بن أبي ربيعة أنشد عبد الله بن العباس قوله:

تشط غداً دار جيراننا

فقال له ابن عباس:

وللدار بعد غد أبعد

فقال له عمر: هكذا والله، فقال ابن عباس: وهكذا يكون. ويؤكده أيضاً، ما حكي عن عدي بن الرقاع من أنه أنشد الوليد بن عبد الملك بحضرة جرير والفرزدق قصيدته التي مطلعها:

عرف الديار توهماً فاعتادها

(26) العباسي ص 220/ 1.
(27) الصفحة السابقة.
(28) 221/ 1 المصدر نفسه.

ثم انتهى إلى قوله:

تـزجـي أغـن كـأن إبـرة روقـه

ثم شغل الوليد عن الاستماع، فقطع عدي الإنشاد، فقال الفرزدق لجرير: ما تراه يقول؟ فقال جرير: أراه يستلب بها مثلاً، فقال الفرزدق إنه يقول:

قـلـم أصـاب مـن الـدواة مـدادهـا

ثم عاوده الإنشاد، فقال ذلك، فقال الفرزدق: والله لما سمعت صدر بيته رحمته، وقلت قد وقع في معضلة، وما عساه يقول، وهو أعرابي جلف جاف، فلما أنشد عجزه انقلبت الرحمة حسداً[29].

ومن معاني الإرصاد قول دعبل:

وإذا عـانـدنـا ذو قـوة غـضـبـت الـروح عـلـيـه فـعـرج

فـعـلـى أيـمـانـنـا يـجـري الـنـدى وعـلـى أسيافنا تـجري الـمـهج[30]

إذ إن عجز البيت الثاني قد ضمن الشاعر دليله في صدر ذلك البيت، فإذا كانت الأيمان للبذل والعطاء فإن السيوف لإزهاق الأرواح.

وقال زهير بن أبي سلمى:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً ـ لا أبا لك ـ يسأم[31]

فالشاعر عندما قال في أول البيت: (سئمت) ثم قال: (ثمانين حولاً) اقتضى أن يجيء في آخره (يسأم) لا محالة، وكذلك قوله:

والـسـتـر دون الـفـاحـشـات ومـا يـلـقـاك دون الـخـيـر مـن سـتـر[31]

فالستر الأول يلهم القارىء إلى أن اللفظ المناسب له في قافية البيت هو (ستر) فيعرف ذلك قبل أن يصل إليه، وفق هذا القبيل قول امرىء القيس:

---

(29) نفحات الأزهار ص 236.

(30) 1/221 معاهد التنصيص.

(31) سر الفصاحة/ 151.

فإن تكتموا الداء لا نخفه وإن تقصدوا الذم لا نقصد[32]

قال ابن سنان الخفاجي: فهذا هو الكلام الذي يدل بعضه على بعض، ويأخذ بعضه برقاب بعض، وإذا أنشدت صدر البيت علمت ما يأتي من عجزه[32]. وقال أبو صخر الهذلي:

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر[32]

فقوله: (عجبت لسعي الدهر) في مطلع البيت دليل وضعه الشاعر لمعرفة ما ينتهي به، وهو قوله: (سكن الدهر). ومنه بيت عمرو بن معديكرب:

وكنت سناماً في فزارة تامكاً وفي كل حيّ ذروة وسنام[32]

فالإرصاد في قوله في المصراع الأول (وكنت سناماً) حيث جاء دليلاً يقتضي أن اللفظ المناسب في القافية هو (سنام) أيضاً. وسلك الراعي النميري سبيل الإرصاد، وهو يمتدح قومه برزانة العقل، ورجاحة الرأي فقال:

وإن وزن الحصى فوزنت قومي وجدت حصى ضريبتهم رزينا

فإذا أنشد أول البيت استنتج منه السامع لفظة قافيته لأنه يعلم أن قوله: (وزن الحصى) سيأتي بعده رزين. لعلتين: إحداهما: أن قافية القصيدة توجبه، والأخرى أن نظام المعنى يقتضيه لأن الذي يفاخر برجاحة الحصى يلزمه أن يقول في حصاه: إنه رزين[33]، ومن أساليبه كذلك قول العباس بن مرداس:

همو سودوا هُجْناً وكل قبيلة يبيّن عن أحسابها من يسودها[33]

وقال نصيب:

وقد أيقنت أن ستبين ليلى وتحجب عنك إن نفع اليقين[33]

انظر كيف رد الشاعر العجز على الصدر في البيت، ونصبه علماً عليه وداعياً له. وذلك للموافقة بين (أيقنت) وبين (اليقين). وقال مضرس بن ربعي:

---

(32) الصفحة السابقة.

(33) نقد الشعر لقدامة/ 191.

تمنيت أن ألقى سليماً ومالكاً على ساعة تنسي الحليم الأمانيا[34]

قدم الشاعر الدليل الذي يتضمن معنى القافية، بل ولفظها كذلك، فإن السامع لن يشك في أن قول الشاعر (تمنيت) الذي هو الرصد يقتضي قافية للبيت هي (الأمانيا) وقالت جنوب أخت عمرو ذي الكلْب:

وأقسم يا عمرو لو نبهاك إذاً نبها منك داء عضالا[35]

فقد جعلت الشاعرة صدر البيت رصداً لعجزه، فإن قولها: (فأقسم يا عمرو لو نبهاك) يتطلب أن يكون تمامه (إذاً نبها منك داء عضالا).

ومما علق به ابن أبي الإصبع على هذا البيت قوله: وكما يدل الأول على الثاني كذلك يدل الثاني على الأول، فإنه لو قيل لحاذق بما يصلح أن يوطأ لقولها: (إذاً نبها منك داء عضالا) فإنه لا يجد إلا قولها: (فأقسم يا عمرو لو نبهاك) فهذا ما يدل الأول فيه على ما بعده دلالة معنوية[36]. هذا وتارة تكون دلالة أول الكلام على ما يتلوه منه دلالة لفظية، مثال ذلك قول جنوب أيضاً:

إذاً نبها ليت بمرِّيَّةٍ مفيتاً مفيداً نفوساً ومالا

فإن العارف ببنية الشعر إذا سمع قولها (مفيتاً مفيداً) تحقق أن هذا التركيب يوجب أن يتلوه قولها: (نفوساً ومالاً)[37]. وقال عمرو بن كلثوم في معلقته:

ونوجد نحن أحماهم ذمارا وأوفاهم إذا عقدوا يمينا[37]

ومجيء الإرصاد في هذا البيت هو أن الشاعر ذكر في المصراع الأول صفات المدح في الحرب مفتخراً، وهذا يقتضي منه أن يأتي بصفات المدح في حالة السلم أيضاً والسلم لا يكون إلا بعقد العهود والأيمان مع الوفاء بهما،

(34) المرجع السابق/ 192.
(35) تحرير التحبير لابن أبي الإصبع/ 263.
(36) المرجع السابق/ 264.
(37) المرجع نفسه/ 266.

فتعين عليه أن يقول: (وأوفاهم إذا عقدوا يمينا) بعد قوله في الشطر الأول (نحن أحماهم ذمارا) وعليه فإن أول البيت يقتضي عجزه لما بينهما من ترابط لفظي ومعنوي وقال أبو حية النميري:

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا

فإذا وقف القارىء عند قول الشاعر (تقاضاه شيء) بعد مروره بتقاضي الأيام والليالي في صدر البيت علم أن (التقاضيا) هو اللفظ المناسب الذي يدل عليه أول البيت.

ومن جيد هذا الأسلوب قول الشاعر:

فمن يكن لم يَغْرَضْ فإني وناقتي بنجد إلى أهل الحمى غَرِضَانِ

تنوح فتبدي ما بها من صبابة وأخفي الذي لولا الأسى لقضاني[38]

جعل الشاعر الدليل من صدر البيت الأول توطئة لما سيجيء بعده مناسباً له في القافية لشدة ما بينهما من التضامن اللفظي والمعنوي متمثلاً في قوله (يغرض) و (غرضان) ومثل ذلك يقال في البيت الثاني. ومن الأشعار التي ضمنت في صدورها أدلة على أواخرها وأعجازها قول الشاعر:

ساروا وما عاجوا عليك بنظرة والله يحفظ من جفاك ويُصْحِبُ

ليس التعجب من بكاك عليهم لكن بقاك مع التفرق أعجب[38]

ومثل ذلك قول الآخر:

صب يحن إليه صب قلباهما في الحب قلب

الذنب للأيام ليس لمن تجور عليه ذنب[38]

وكذلك قول الشاعر:

شغلتك وهي لكل ذي بصر لاقى محاسن وجهها شغل

وإذا نظرت إلى محاسنها فلكل موقع نظرة قَبَلُ

(38) البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ / 127/ 128.

وتنال منك بحد مقلتها ما لا ينال بحده النصل
فلقلبها حلم يباعدها عن ذي الهوى ولطرفها جهل[39]

فإن الحذاق ببنية الشعر يدركون لا شك ما لهذه النصوص من قيمة فنية وأدبية لما بين ألفاظها ومعانيها من التآلف وإحكام الصنعة، وذلك لأن كل لفظة فيها تقتضي ما بعدها، وهذا هو الكلام الذي يدل بعضه عل بعض، ويأخذ بعضه برقاب بعض وتسابق ألفاظه معانيه إلى القلوب، وإذا أنشدت صدوره حضر إلى قلبك ما تأتي به أعجازه، فكان بذلك موضع اختيار من أصحاب النقد والبلاغة على السواء، ومن قبيل هذه النماذج المختارة قول بعضهم:

وقد لان أيام الحمى ثم لم يكد من العيش شيء بعد ذاك يلين
يقولون ما أبلاك والمال عامر عليك وضاحي الجلد منك كنين
فقلت لهم: لا تعذلوني وانظروا إلى النازع المقصور كيف يكون[40]

فإن قوله: (يلين) في آخر البيت الأول يدل عليه قوله (لان) في أوله، وهو ما يسمى بالإرصاد أو التسهيم، وقوله (كنين) يرشد إليه (ضاحي الجلد) قبله، وقوله (يكون) يقتضيه (النازع المقصور) وهكذا نجد الشاعر قد راعى التناسب بين ألفاظ شعره، ثم أحكم البناء وقدم الأدلة. قال أبو هلال العسكري في نقده لهذه الأبيات: إذا قلت (ضاحي الجلد منك) فليس شيء سوى (الكنين) وكذلك إذا قلت: (إلى النازع المقصور كيف) فليس شيء سوى (يكون)[41]. وقال أبو تمام: في رثاء العمير بن الوليد:

قد كنت حشو الدرع ثم أراك قد أصبحت حشو اللحد والأكفان
شغلت قلوب الناس ثم عيونهم مذ مت بالخفقان والهملان

وقوله:

(39) البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ / 127/ 128.
(40) الصناعتين/ 382.
(41) الصفحة السابقة.

مـا يـرعـوي أحـد إلـى أحـد ولا يـشـتـاق إنـسـان إلـى إنـسـان[42]

لا يخفى على من مهر هذا الكلام أن مطلع كل بيت في هذا النص الأدبي يفضي إلى ما تلاه من لفظ القافية وما قبلها. تأمل العلاقة بين قوله: (قد كنت حشو الدرع) وقوله: (قد أصبحت حشو اللحد والأكفان) وقوله: (شغلت قلوب الناس ثم عيونهم) وقوله: (بالخفقان والهملان) وإذا سمع القارىء قوله: (ما يرعوي أحد إلى أحد) ثم (ولا يشتاق) بادر إلى ذهنه قوله: (إنسان إلى إنسان) ومما يستجاد في هذا اللون من أساليب الأدب والبيان قول أبي عبادة البحتري:

أحلت دمي من غير جرم وحرمت بـلا سـبـب يـوم الـلـقـاء كـلامـي

فـلـيس الـذي قـد حـلـلـت بـمـحـلـل ولـيس الـذي قـد حـرمـت بـحـرام[42]

فإن البيت الأول يشير ضمناً إلى معنى البيت الثاني، كما أن صدر البيت الثاني يحدد شكل ومضمون ما جاء عليه شطره الثاني، وتلك هي غاية إحكام الصنعة. وعلى هذا السنن يأتي قول الشاعر:

جـهـول بـالـمـنـاسـك لـيس يـدري أغـيـابـات يـفـعـل أم رشـادا[43]

واضح أن الشاعر جعل المصراع توطئة لما يأتي بعد ذلك من الكلام، ومن جيد ما يستشهد به في هذا الفن قول بعضهم:

ولو أنني أعطيت من دهري المنى وما كل من يعطى المنى بمسدد

لـقـلـت لأيـام مـضـيـن: ألا ارجـعـي وقـلـت لأيـام أتـيـن: ألا ابـعـدي[44]

وللبحتري قول جميل متمكن في هذا اللون من الأدب الرصين، وهو قوله:

أبـكـيـكـمـا دمـعـاً ولـو أنـي عـلـى قدر الجوى أبكي، بكيتكما دما[44]

ويروى أن إبراهيم بن أبي محمد اليزيدي قال: كنت عند المأمون يوماً،

---

(42) نفحات الأزهار/ 135.

(43) الصفحة نفسها.

(44) معاهد التنصيص/ 221/ 1.

وبحضرته عريب، فقالت لي على سبيل الولع: يا بلعوس، وكانت جواري المأمون يلقبنني بذلك عبثاً، فقلت:

قل لعريب لا تكوني مسلعسة وكوني كتعريف وكوني كمؤنسه

فقال المأمون:

فإن كثرت منك الأقاويل لم يكن هنالك شيء إن ذا منك وسوسه

فقلت: كذا والله يا أمير المؤمنين أردت أن أقول، عجبت من ذهن المأمون وطبعه، وفطنته[45]. وقال العباسي يحاكي فن الإرصاد بجيد من القول:

ليس التقدم بالزمان مقدماً أحداً ولا التأخير فيه يؤخر

فلكل عصر مستجد تبع ولكل وقت مقبل إسكندر

ومدح أبو الرجاء الأهوازي الصاحب بن عباد لما ورد الأهواز بقصيدة منها:

إلى ابن عباد أبي القاسم الصاحب إسماعيل كافي الكفاه

فاستحسن جمعه بين اسمه ولقبه وكنيته واسم أبيه في بيت واحد ثم ذكر وصوله إلى بغداد، وملكه إياها، فقال:

«ويشرب الجند هنيئاً بها» فقال له ابن عباد: أمسك أمسك، أتريد أن تقول: «من بعد ماء الري ماء الفرات» فقال: هكذا والله أردت وضحك[45].

ومن مليح قول المعري في فن الإرصاد قوله:

إذا الفتى ذم عيشاً في شبيبته ماذا يقول إذا عصر الشباب مضى[46]

فإن قوله: (إذا عصر الشباب مضى) قد جاء نتيجة لما قدمه الشاعر في صدر البيت وهو قوله: (ذم عيشاً في شبيبته)، ومنه قول الشاعر أيضاً في مدح النبي ﷺ وذكر بعض معجزاته:

---

(45) معاهد التنصيص/ 221/1.

(46) نفحات الأزهار/ 135.

وفاض من أصبعيه الماء معجزة حتى الجيوش ارتوت من سائغ شبم[47]

فالماء الذي نبع من بين أصابعه ﷺ أعذب أنواع المياه، وأفضلها من غير شك لأنه معجزة، ومن هنا كان قوله: (سائغ شبم) لمعنى سهل سلس قراح قد تضمنه الشطر الأول من البيت.

ومن أسلوب الإرصاد كذلك قول أحد الغزليين:

تعشقته فرأيت العجيـ ـب من أمره واصطباري انمحى
محياه في الليل بدر التما م حسناً وفي الصبح شمس الضحى[47]

فقوله: (وفي الصبح شمس الضحى) قد جاء مناسباً للدليل الذي نصبه الشاعر في أول البيت وهو قوله: (في الليل بدر التمام).

ومن الأبيات التي تظهر فيها الألفة والترابط بين صدورها وأعجازها قول عز الدين الموصلي «هم أرضعوني ثدي الوصل حافلة» فكيف يحسن منها حال منفطم وكذلك قول عائشة الباعونية:

وأقبسوني مذ آنست نارهم من طور حضرتهم نوراً جلا ظُلمي[47]

فنصها على النار والنور دليل واضح على قولها: (جلا ظلمي) في القافية.

وقال الشاعر:

يا عصبة الكفر ذا لو تؤمنون به كنتم سلمتم من التعذيب بالضرم

فإن من تطرق إلى سمعه قوله: (يا عصبة الكفر) وسمع أيضاً طلبه الإيمان منهم علم منه أنهم يستحقون العذاب (بالضرم) وهو إشعال النار فيهم.

وقال أبو فراس الحمداني:

يا معشر الناس هل لي مما لقيت مجير
أصاب غرة قلبي ذاك الغزال الغرير
فعمر ليلى طويل وعمر نومي قصير[47]

(47) نفحات الأزهار/ 135.

فإن ذكر طول عمر الليل يطلب قصر عمر النوم من غير شك، ولهذا كان يتبادر إلى ذهن السامع العلم به قبل الوصول إليه، ومثل هذا يلاحظ في عجزي البيتين قبله بالنسبة لصدورهما.

ومن قبيل ذلك قول بعضهم:

يا معرضاً لا لذنب ومبعدي بعد قربي
إن لم تشاهدك عيني فأنت في وسط قلبي[48]

فبين العين والقلب تعاطف ودلالة تربط بينهما في شطري البيت الثاني وتناول أبو العباس ثعلب في كتابه (قواعد الشعر) معنى الإرصاد تحت عنوان (الأبيات المحجلة) فقال: والأبيات المحجلة ما نتج قافية البيت عن عروضه وأبان عجزه بغية قائله، وكان كتحجيل الخيل، والنور يعقب الليل، ومن الأمثلة في هذا المعنى قول امرىء القيس:

من ذكر ليلى وابن ليلى وخير ما رمت لا ينال

وقوله:

ولو عن فثا غيره جاءني وجرح اللسان كجرح اليد

وقوله:

وتملأ بيتنا أقطا وسمنا وحسبك من غني شبع وري

وقال الحارث بن وعلة الشيباني:

إن يأبروا نخلاً لغيرهمُ والقول تحقره وقد ينمي

وقال المهلهل:

هتكتُ به بيوت بني عياد وبعض القتل أشفى للصدور

وقال عنترة:

فاقني حياءك ـ لا أبا لك ـ واعلمي أني امرؤ سأموت إن لم أقتل

(48) نفحات الأزهار/ 135.

وقال طرفة:

بحسام سيفك أو لسانك والـ ـكَلِم الأصِل كأرغبِ الكَلِمِ

وقال أيضاً:

وأعلم علماً ليس بالظن أنه إذا ذل مولى المرء فهو ذليل[49]

والناظر في هذه الأبيات وأمثالها يتبين له أن السامع حين تنشد أمامه صدورها يكون قد عرف نهايات أعجازها قبل الوصول إليها، كما قال ابن نباتة في وصف قصيدته:

خذها إذا أنشدت للقوم من طرب صدورها علمت منها قوافيها

وقال أبو عبادة البحتري:

مشيت كبث السرّعيّ بحمله محدثه أو ضاق صدر مذيعه

تلاحق حتى كاد يأتي بطيئه يحث الليالي قبل آتى سريعه

لما قال الشاعر (تلاحق حتى كاد يأتي بطيئه) دل على أن التناسب يقضي أن يكون عجز البيت (قبل أتى سريعه). ومما يؤكد أن الإرصاد مصدر أدبي للبيان العربي في صياغة أساليبه وإحكام تراكيبه هذه الجملة من الأبيات لكبار الشعراء وبلغائهم وما من بيت فيها إلا وقد نال استحسان علماء النقد والبلاغة حتى ازدحمت بها كتبهم وفاضت بها دراساتهم على أنها خير شاهد وأبلغ دليل في موضوعها، وهو فن الإرصاد كما تقدم.

قال امرؤ القيس:

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرجل[50]

وقال عبيد بن الأبرص:

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب[51]

---

(49) قواعد الشعر/ 71 ـ 75.

(50) نفحات الأزهار/ 246.

(51) التمثيل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي/ 8.

وقال لبيد بن ربيعة:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل[52]

وقال كعب بن مالك:

همت سخينة أن تغالب ربها وليغلبنّ مغالب الغلاب[52]

وقال كعب بن زهير:

وليس لمن لم يركب الهول بغية وليس لرحل حطه الله حامل[52]

وقال الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس[53]

وقال رجل من ولد عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

ترى الشيء مما تتقي فتخافه وما لا نرى مما يقي الله أكثر[54]

وقال أبو تمام:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم[55]

وقال بعضهم:

ما كلف الله نفساً فوق طاقتها ولا تجود يد إلا بما تجد[56]

وقال أبو فراس:

إذا كان غير الله للمرء عدة أتته الرزايا من وجوه الفوائد[56]

وقال آخر:

ليس ملك الذي يموت بملك إنما الملك ملك من لا يموت[56]

وقال آخر:

ومن ينعش مليك الدهر يرفع ومن يخفض فليس بذي انتعاش[56]

---

(52) التمثيل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي/ 8.
(53) المرجع نفسه/ 63.
(54) ص 9 المرجع السابق.
(55) المرجع السابق ص 10.
(56) المرجع نفسه ص 11.

وقال أبو العتاهية:

أيا عجباً كيف يعصى الإلـ ـه أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد[57]

وقال إبراهيم بن المهدي العباسي:

على المرء أن يسعى ويبذل جهده ويقضي إله الخلق ما كان قاضيا[58]

وقال محمود الوراق:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع[58]

هذا، ولعل القارىء الكريم قد عرف معنى الإرصاد في الأدب، كما تبين له النمط الأسلوبي الذي يكون عليه، وأثر ذلك في البيان العربي من خلال قراءته لما أسلفنا ذكره من النماذج في هذا البحث، غير أن هناك حقيقة جديرة بالنظر والدراسة لأنها تمثل جانباً من هذا البحث وتلكم هي أن الإرصاد والتسهيم، والتوشيح تتفق في الدلالة على مضمون واحد وأن الاختلاف في التسمية شكلي، كما سبق أن ذكرنا هذا من قبل، وقلنا: لماذا عقد علماء البلاغة ونقاد الأدب لكل منها فصلاً مستقلاً أو اسماً خاصاً عند دراستها.

وجملة القول في ذلك: فإن اتفاق المعنى الأدبي أو المعنى الفني للمصطلح البديعي لكل من أنواع البديع الثلاثة: الإرصاد والتسهيم والتوشيح راجع إلى اتفاق المعنى اللغوي لهن، وإلى قوة الصلة بين المعنيين جميعاً، وذلك لأن المعنى اللغوي للإرصاد نصب الرقيب في الطريق ليدل عليه، أو ليراقب من يأتي منه، وأن التسهيم لغة تصويب السهم إلى الغرض، وأن التوشيح مأخوذ من شد المرأة الوشاح بين عاتقيها وكشحيها، وعطف طرفي

(57) المرجع نفسه ص 11.
(58) المرجع السابق ص 12.

الوشاح بعضهما على بعض، وما في ذلك من الزينة ومن هذا القبيل (الموشحات) ومن هنا يمكن القول بأن الإرصاد في الأدب: أن يكون أول الكلام مرصداً ليدل على آخره، ويشعر به، وأن التسهيم توجيه معنى أول الكلام ليفهم منه آخره، وأن التوشيح ربط أول الكلام بالآخر منه.

وبناء على هذه المقارنة بين أشكال البديع الثلاثة فقد ثبت أن مضمونها واحد، وأنها تصب جميعها في نهر البيان العربي الرائق، وأنها تسهم في تطوير أساليبه، وتوسيع أغراضه بما تشتمل عليه من دقة المعنى ووضوح الغاية وإحكام الصياغة، وتعطف حواشي الكلام، ودلالة صدوره على أعجازه وتلك هي أعلى درجات البيان في اللغة العربية لغة القرآن الكريم ولغة هذه الأمة الفاضلة، وإلى هذا الضرب من الكلام أشار شيخ البيان الجاحظ بقوله: وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان[59] وقال أيضاً: وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج وجنس من التصوير[60].

وخلاصة القول فإن هذا النموذج من أساليب اللغة العربية الذي يصب في تلك القوالب المحكمة (الإرصاد) لهو غاية في البيان العربي لا يتطلع إليه إلا فحول الشعراء، وفصحاء الخطباء، والكتاب البلغاء، حيث يستطيع الواحد من هؤلاء بحسن كلامه أن ينقل السامع إلى الجو الذي يعيش فيه، ويشاركه نفس الانفعال والشعور الذي يجده، وأن يجعله يسبق إلى فهم ما يأتي من معانيه بألفاظها قبل الوصول إليها، وذلك بحسن ما يقدمه بين يدي السامع في أول بيته أو فواصل كلامه.

---

(59) البيان والتبيين/ 67/ 1.

(60) الحيوان/ 131/ 132/ 3.

المصادر والمراجع

1 ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. جـ 8، ط/ دار الكتب.

2 ـ البديع في نقد الشعر/ أسامة بن منقذ/ تحقيق/ أحمد بدوي وحامد عبد المجيد/ سنة 1960 م.

3 ـ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح/ البديع/ شرح عبد المتعال الصعيدي.

4 ـ البيان والتبيين للجاحظ/ جـ 1 ـ ط/ 3 ـ تحقيق هارون ـ مكتبة الخانجي.

5 ـ تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الإصبع المصري/ نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية/ مصر/ ط سنة 1383 هـ.

6 ـ التمثيل والمحاضرة/ لأبي منصور الثعالبي. ط/ دار إحياء الكتب العربية 1961 م.

7 ـ الحيوان/ للجاحظ جـ 3 ـ ط 2 ـ تحقيق هارون سنة 1965 م.

8 ـ سر الفصاحة/ لابن سنان الخفاجي/ شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي ط/ 1969 م.

9 ـ شروح التلخيص في علوم البلاغة للسكاكي جـ 4 ـ م. السعادة بمصر/ ط سنة 1343 هـ.

10 ـ الصناعتين لأبي هلال العسكري/ تحقيق/ البجاوي ومحمد أبو الفضل. ط/ أولى سنة 1952 م.

11 ـ علوم البلاغة لأحمد المراغي/ م محمد مطر بالعقبة سنة 1917 م.

12 ـ قواعد الشعر/ لأبي العباس ثعلب/ تحقيق ـ خفاجي ـ ط ـ أولى سنة 1948 م.

13 ـ معاهد التنصيص/ عبد الرحيم العباسي جـ 1 ـ المطبعة البهية بمصر سنة 1316 هـ.

14 ـ نفحات الأزهار على نسمات الأسحار ـ عبد الغني النابلسي/ م/ بولاق/ مصر سنة 1299 هـ.

15 ـ نقد الشعر/ قدامة بن جعفر/ تحقيق كمال مصطفى/ م الخانجي بمصر سنة 1963 م.

16 ـ نهاية الأرب في فنون الأدب/ للنويري جـ 7/ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب.